موقع أوروبا في المستقبل الأمريكي

13-4-2003

الرهان المستقبلي للاتحاد الأوروبي يكمن في طريقة مواجهة الصراعات الإقليمية والحروب المصلحية التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية وتدعمها، وهناك فقط يمكن القول إن الاتحاد الأوروبي شيء حقيقي أم أنه مجرد أسطورة تقودها دول لم تتخلص من تبعيتها للولايات المتحدة الأمريكية، تلك الدولة التي تتبنى منطق "الحرب الوقائية"، في مقابل عالم همه الأول والأخير يكمن في "توقي الحرب".. ليس إلا.

بقلم مصطفى فرحات

أظهرت الأزمة العراقية الأخيرة وما تبعها من مواقف وتصريحات مدى الخلاف القائم بين دول الاتحاد الأوروبي وتصوراته في مسائل خطيرة كمسائل الحرب والسلام وتغليب إحداهما على الأخرى، وفتحت المجال واسعا لنقاش كبير حول مستقبل الاتحاد الأوروبي الذي انقسم أعضاؤه بين "تابع مُخلص" للولايات المتحدة الأمريكية، وبين "مُقاوم" يحاول أن يجعل من الاتحاد قطبا فاعلا في السياسة الدولية التي ميزتها الهيمنة المطلقة للولايات المتحدة الأمريكية على دروبها وأزقتها.

وثمة أسئلة تُطرح.. هل ستشهد العلاقات الأوروبية الأمريكية تغيرا مستقبليا بعد "الفراغ" من العدوان العراقي؟ وما هو مدى الاهتزازات السياسية والاقتصادية التي يمكن لها أن تصيب هذا "الغرب" المنقسم على ذاته؟ وما هو موقع فرنسا من هذا الخلاف الذي تعتبره الولايات المتحدة الأمريكية صناعة فرنسية بالدرجة الأولى؟

(1)

عندما قال وزير الخارجية الفرنسي (دومينيك دوفيلبان): "إننا متأكدون بضرورة وجود عالم متعدد الأقطاب، وإن قوة واحدة لا يمكن لها التحكم في نظام العالم".. لم يكن يظن أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت ستلجأ إلى القفز عليه وعلى كل العالم، لتخوض حربا عدوانية رفقة بعض عملائها ضد العراق، وتأكد الجميع بعد ذلك أن الحديث عن "عالم متعدد الأقطاب" لا يعدو أن يكون ضربا من الخيال، على الأقل في ظروف تتحرك فيها الولايات المتحدة الأمريكية مثل "الكلب المسعور" الذي لا يفيق إلا بعد فوات الأوان، وبدا واضحا للعيان أن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالقوة أمر حيوي بالنسبة لصقور الإدارة الأمريكية الذين جعلوا من الحادي عشر سبتمبر "العامل المحرك" الذي يبرر لهم ممارسة مهام الإمبراطوريات القديمة لتحضير الشعوب، تلك الإمبراطوريات التي كانت تعتقد تماما مثلما ذكر المؤرخ (دوغلاس بورش) "أن انتشار التجارة والمسيحية والعلم، وكذا جدارة الإدارة الغربية، يمدُّ حدود

الحضارة ويقلل - من ثمَّ - مناطق الصراع. وبفضل الإمبريالية، سيتحول الفقر إلى هناء، وستحظى الهمجية بالإسعاف، وستُضحي الخرافات أنوارا، وبذلك يحل النظام في كل المناطق التي كانت الفوضى والهمجية الحاكم الوحيد فيها".

وكان الظرف يستدعي حدوث "بيرل هاربور" جديدة، حيث تحدّث أحد شهود فترة حرجة في الولايات المتحدة الأمريكية قائلا: "لقد كانت أعراض حرب الفيتنام قائمة، ولم يكن العسكريون يريدون اللجوء إلى استعمال القوة إلا إذا وافق الجميع على ذلك. وكانت الشروط الموضوعة تتطلب استفتاء وطنيا قبل اللجوء إلى استعمال القوة. ولم يكن هناك إمكانية إعلان حرب مَّا دون وجود عامل مؤثر مثل "بيرل هاربور".

غير أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت أقوى من "بيرل هاربور"، حيث جسدت صورة الأبراج المنهارة انهيار الأسطورة الأمريكية التي ظن بعضهم امتدادها السرمدي، ولكن الأدهى من ذلك هو أنه في اللحظة التي انهارت فيها هذه الأبراج مثل قصور الرمال على جُرُف "منهاتن"، كانت القيم التي بُنيت عليها الولايات المتحدة كما أراد لها الآباء السبعة تتهاوى الواحدة تلو الأخرى، فاسحة المجال لتعصب ديني أعمى وعصبية مقيتة.. مزجتها جُمَل من فلسفات القوة والثأر الممزوجة بحِكَم "ماكيافيللي" و"هوبز"، لتجمع الدولة الفتية بين خفة الروح وخفة العقل، وبين الجهل والظلم، في تزاوج عجيب فتح المجال واسعا أمام فناء يظن كثيرون أنه أصبح قريبا..

وهكذا انساقت الولايات المتحدة الأمريكية في حرب عدوانية على العراق يخطط لها "إداريون" ويقودها "عسكريون"، وينفذها "مراهقون" لم يتجاوزوا في كثير من الأحيان الثانية والعشرين ربيعا.. هؤلاء الذين حملوا من موطنهم الأصلي أفكارا خاطئة عن "العرب الهمج الذين يحكمهم قانون الغاب".

هذه المعارف السطحية والخاطئة كانت تمثل الثقافة التي أرضع أولئك الأطفال بلبانها، ففي عام 1992، أنتجت استوديوهات "ديزني" رسما كارتونيا يحمل عنوان "علاء الدين"، والذي لاقى نجاحا ورواجا كبيرين، وحاز على جائزة الأوسكار لكونه يحوي أحسن مدخل غنائي، ذلك المدخل الذي يغني فيه علاء الدين المقطع التالي: "إنني قدمت من بلد بعيد جدا.. أين تمشي قوافل الجمال.. إنهم يقطعون أذنك إذا غاب رأسك.. إن هذا شيء وحشي.. ولكنه بلدي رغم ذلك".. هذا المقطع الذي اضطر أستوديو "ديزني" إلى إجراء تعديل طفيف عليه نظرا للاحتجاجات العربية والمسلمة وقتها.

وكان الرئيس الأمريكي يفعل شيئا كهذا.. لقد كان يقول إن العراق يحكمه رجل متجبر يقطع الرؤوس، موحيا بذلك أن قصة "علاء الدين" ليست مجرد خيال أو وهم، وإنما هي حقيقة.

ولكن فرنسا - ومن ورائها جانب من أوروبا - نصبت نفسها غرضا للانتقادات الأمريكية عندما أعلنت صراحة رفضها للسياسات القادمة من وراء المحيط، والتي تتبنى مبدأ الحرب قبل كل شيء، تلك الحرب التي ما فتئ الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) يكرر أنها "دليل على الإخفاق والفشل، وأنها أسوأ الحلول".

"يجب علينا أن نُضيف الاتحاد الأوروبي والجمهورية الخامسة الفرنسية في قائمة الأنظمة التي يجب أن تسقط في مرحاض التاريخ. غير أن السؤال الكبير المطروح هو مدى حجم الفوضى الكافي لتفتيتهم".. هكذا كتب (مارك شتاين) في [المجلة اليهودية العالمية] في الفاتح ماي 2002.

".. إن الفرنسيين يوصفون بأنهم "قردة مشردة تأكل الجبن".. وهكذا كتب (يوناح غولدبيرغ) في [المجلة الوطنية أون لاين].. وهو الكاتب الذي أشار إلى أن "تشريح الفرنسيين" بالنقد والتجريح أصبح صناعة رائجة في وسائل الإعلام المختلفة.

وتمتد حمى العدوان لتطال أوروبا كذلك، حتى يقول (مارتن والكر) - وهو مسؤول كبير في واشنطن - مدفوعا بنشوة وجد: "أتودون أن تعرفوا ما هي وجهة نظري فيما يخص الأوروبيين؟ أن أظن أنهم ببساطة أخطأوا في كل المسائل الدولية الكبرى خلال العشرين سنة الأخيرة"!! في سياق مشهد غريب يُظهر أن الولايات المتحدة عازمة على محاربة كل العالم لتعيش في أمن مطلق، كما كتب (مارتن وولف) في صحيفة [فايننشال تايمز] قائلا: "إن البحث عن الأمن المطلق يُفضي إلى جعل الآخرين يعيشون في اللاأمن المطلق".

لقد كان الأمريكيون يظنون أن رفض فرنسا السير في القطار الأمريكي أمر سرعان ما يزول إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، وأنه إذا جاءت ساعة الحسم فإن فرنسا - ومن خلفها أوروبا - لن تني في الانضواء تحت اللواء الأمريكي الذي تخلّف عنه كثيرون خلافا لما مضى، غير أن التهديد بفيتو فرنسي يمنع استخدام القوة ضد العراق صدم الأمريكيين وأفقدهم توازنهم، ليفيقوا على صرخات تتهم فرنسا بالخيانة، وأخرى تقول إنها ذهبت بعيدا ولم تحترم نفسها، مثلما كتب (توماس فريدمان) في صحيفة [نيويورك تايمز]، لتصوّر فرنسا في صورة المدافع عن النظام البعثي الذي يقوده صدام حسين، ودماء الأمريكان الذين أريقت من أجل تحرير فرنسا في معارك النورموند الشهيرة عام 1944 لم تجف بعد.. أو هكذا يخيّل إليهم.

وبناء على ذلك، شرع الأمريكيون في التنكر لهذا الاتحاد الأوروبي الذي كان لهم قسط كبير في تأسيسه واحتضانه، انطلاقا من تحريره من يد النازيين، ومرورا بمشروع مارشال الذي كان أحد الأسباب الرئيسية التي ساعدت أوروبا على لم شتاتها والسعي نحو مستقبل مُشرق ومزدهر، وانتهاء بحمايتها من الخطر السوفييتي، ليصبح هذا الاتحاد قطبا - أو هكذا يريد أهله - يعارض سياسات الولايات المتحدة الأمريكية ويهددها في مصالحها.. لقد كان ذلك بداية "الطلاق" بين أوروبا وأمريكا، وهو طلاق لفت إليه الكاتب الأمريكي الشهير (روبرت كيغان) بقوله في كتابه الذي أسماه [عن الجنة والقوة]: "إننا والأوروبيين مثل زوجين استيقظا من النوم في أحد الأيام وحملق كل في صاحبه، ليقولا معا: "لست الشخص الذي تزوجته".

(3)

ولكن ثمة أسئلة تُطرح.. هل كان امتناع فرنسا وألمانيا وبلجيكا من الخوض في الحرب نتيجة لوعي عميق بما يمكن أن تسفر عنه الأحداث في منطقة لا تزال ملتهبة بصراع دموي بين الفلسطينيين واليهود المحتلين؟ وهل أيقنوا تمام اليقين أن فتح جبهة قتال مع العرب أمر لن يكون سوى إيذانا ببداية فوضى عارمة تجتاح العالم بأسره، وتقود الأرض وساكنيها إلى جرف اللااستقرار؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون نفورا "طبيعيا" من الحرب لا تحكمه الحسابات الاستراتيجية بقدر ما يحكمه خوف "فطري" ناتج عن ضعف وجبن؟

إن الأمريكيين يرجحون الاحتمال الثاني.. بل ويؤكدونه.

يقول (روبرت كيغان): "غير أن ثمة تفسيرا أحسن لهذا التغاضي الأوروبي عن الخطر، وهو أن أوروبا ضعيفة".

"إن نفسيتي القوة والضعف يسير فهمهما. فالرجل الذي لا يملك من الأسلحة غير سكين فقط يمكن له إقناع نفسه بأن الدب الحائم في الغابة خطر يمكن احتماله، وذلك أن محاولة اصطياد الدب بمجرد سكين فقط شيء يعرّض صاحبه للمخاطر أكثر من مجرد رجاء أن لا يهاجمه الدب. ولكنه إن كان يملك بندقية صيد، فإنه سيفكر بطريقة مختلفة لا محالة حول ما يمكنه أن يشكل خطرا محتملا، فلماذا يخاطر الرجل بنفسه ويترك الدب سالما إن كان يمكنه تجنبه؟".

هذه هي الفلسفة الأمريكية، وهذه هي الفلسفة الأوروبية من وجهة نظر أمريكية.. فأوروبا تركز على الأخطار التي يمكن لها مجابهتها مثل الصراعات العرقية وتردي المحيط البيئي، ولكنها لا تهتم بالتهديدات المحدقة بها، أو بالأحرى توطّن نفسها على التأقلم معها دون التفكير في مجابهتها.

وفي سياق التبرير الذي ينتهجه بعض أولئك الذين يعيبون على فرنسا وقوفها في وجه الولايات المتحدة الأمريكية، يذهب أمثال (ميشال روكار) أحد رؤساء حكومة الجمهورية السابقين إلى حد نسف فكرة الاتحاد الأوروبي التي تعلق عليه الشعوب الأوروبية آمالا كبيرة، فيقول: "إن الطريقة الوحيدة التي يمكن لنا تجاوز الأزمة الأمريكو ـ فرنسية من خلالها هي إفهام واشنطن أن فرنسا بتزعمها لهذه المعارضة كانت تناضل من أجل تصورات عن العدالة والشرعية الدولية تتجاوزها، وهي تصورات أوروبية".

هذه التصورات التي بدأ كثيرون الآن يتساءلون بسببها قائلين: "هل هذا الاتحاد الأوروبي حقيقة أم أسطورة"؟

(4)

وقف الأمين العام الأممي كوفي عنان أمام مجلس الأمم المتحدة وهو يحمل تساؤلات عميقة كان يعلم أنها تشغل جوهر الصراع الدائر في العالم الآن، وبعبارات ربما كانت توحي بالعجز أكثر مما توحي بالقوة وقوة العزيمة، راح يطرح على الحضور جملة من التساؤلات: "هل ستزيد هذه الحرب تعقيد مكافحة الإرهاب أو البحث عن السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين؟ وهل ستؤدي هذه الحرب إلى إحداث انشقاقات عميقة بين الدول والشعوب ذوي الاعتقادات المختلفة؟ هل ستعطل هذه الحرب مقدرتنا على العمل الجدي من أجل مواجهة مشاكل أخرى مشتركة في المستقبل؟ هذه هي الأسئلة الخطيرة، ويجب أن تكون الأجوبة عليها موزونة بعناية ودقة..".

كانت هذه هي الأسئلة التي لم ولن تجد جوابا ما دامت المصالح تحكم المبادئ، وما دام العالم يحاكي الغاب في قوانينه ويطبق مبادئ غرسها داروين في لاشعوره دهورا وهو يكرر مبدأ التنازع من أجل البقاء.

وكانت هذه هي الأسئلة التي قد تكون آخر أسئلة تطرحها هيئة الأمم المتحدة التي أثبتت مرة أخرى أنها ليست سوى أداة تستخدم لتبرير القوة لا غير، وأنها بسكوتها أمام العدوان على العراق وقفزها على أعتاب التاريخ فاتحة المجال لنقاشات واسعة حول (عراق ما بعد صدّام) قد حكمت على نفسها بالموت وسط عالم تحكمه أعاصير القوة بقوة الأعاصير التي لا تخلف غير الدمار والأسى.. وجراحا مُلتهبة لا يطفئ حرها إلا لهيب الانتقام.

(5)

في سياق التسلسلات التي خلفتها أحداث 11 سبتمبر 2001، وما نتج عن ذلك من عداء سافر تبرزه الولايات المتحدة الأمريكية، انساق الأمريكيون وراء تبرير جنوحهم الوحشي نحو الحرب والدمار، وقالوا تبعا لـ (توماس فريدمان): "نعم.. لقد تغيرنا.. Yes, we have changed. "، ولكن الأمر لم يكن صحيحا على الإطلاق، وذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تجنح نحو العدوان منذ تأسيسها قبل قرون.

ولكن.. هل يمكن لأوروبا أن تنساق وفق هذا المنطق العدواني وتتنكر لمبادئها ومرونتها، وهي التي أخفقت في الوقوف بوجه إدارة الصقور الأمريكية.. أم أنها ستسارع إلى اعتماد منطق تكيل فيه بمكيالين، تماما مثلما ذكر (روبرت كوبر) أحد مستشاري (توني بلير) السابقين: "سنحترم القانون في تعاملاتنا مع بعضنا البعض، ولكن عندما نكون وسط الغابة، فإننا سنتعامل وفق قوانين الغاب".. كما قال إخوانهم اليهود من قبل: [ليس علينا في الأميين سبيل].

إن الرهان المستقبلي للاتحاد الأوروبي يكمن في طريقة مواجهة الصراعات الإقليمية والحروب المصلحية التي تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية وتدعمها، وهناك فقط يمكن القول إن الاتحاد الأوروبي شيء حقيقي أم أنه مجرد أسطورة تقودها دول لم تتخلص من تبعيتها للولايات المتحدة الأمريكية، تلك الدولة التي تتبنى منطق "الحرب الوقائية"، في مقابل عالم همه الأول والأخير يكمن في "توقي الحرب".. ليس إلا